

الفكاهة.. عند الجاحظ

١٦٣ - ٢٥٥ هـ - ٧٨٠ - ٨٦٩ م

نصر الدين البصرة

عندما ولي الخلافة المتوكل العباسي ، بادر من فوره الى اعتقال الوزير ابن الزيات (١) ، وأمر بتعذيبه حتى قضى نحبه في « تنبور » (٢) ، وكان ذلك على يد قاض من أكثر الناس بغضا لابن الزيات هو « ابن أبي دؤاد » . وعندئذ هرب الجاحظ . فلما جيء به الى ابن أبي دؤاد سألته :

— لم هربت ؟

قال الجاحظ :

— خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنبور (٣) .

فقال ابن أبي دؤاد :

والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة ، كفوراً .

فقال الجاحظ :

— خفّض عليك ! فوالله ليكون لك الأمر عليّ ، خير من أن يكون لي عليك ،

ولأن أسىء وتحسن ، خير من أن أحسن وتسىء ، وأن تعفو عني في حال قدرتك لأجمل من الانتقام .

فقال ابن أبي دؤاد :

— قبحك الله ، ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام ، جيئوا بعدّاد .

فقال الجاحظ :

— أعزّ الله القاضي ، ليفكّ عني .. أو ليزيدني ؟

قال :

— بل .. ليفكّ عنك .

وأتى الحداد ، فغمزه أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلاً ، فما كان من الجاحظ إلا أن لطمه وقال :

— اعمل عمل شهر في يوم ، وعمل يوم في ساعة ، وعمل ساعة في لحظة ، فان الضرر بساقي .

وضحك ابن أبي دؤاد وقال :

— إني أثق بظرفه ، ولا أثق بدينه (٤) .

هذا هو الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، سيد الفكاهة العربية والظرف والنكتة والسخرية والتهكم ، لم يغب عنه حس الفكاهة ، حتى وهو في أقسى الظروف وأكثرها حلكة . وكان قادراً في الآن ذاته ، من خلال الظرف والنكتة ، على تحويل الموقف الصعب المرح ، إلى جانبه ، واستطاع أن يضحك حتى .. هذا الخصم اللدود .

الجاحظ .. سيد الضاحكين

لم يكن الجاحظ أول الضاحكين المضحكين في التاريخ ، وإن يكن من سادتهم في الشرق والغرب . لقد لفتت ظاهرة الضحك هذه أنظار المفكرين والفلاسفة ، منذ أقدم الأزمنة ابتداء بالفراعنة المصريين ، ومروراً بالآغريق ولا سيما أفلاطون في محاورته «فيليبوس» Philebus وأرسطو وانتهاءً ببرغسون وبكوستلر .

وكانوا يختلفون دائماً في تفسير ظاهرة الضحك والاتفاق على سبب أو أسباب في تأويلها « فالظاهر أن عدم التوصل إلى تفسير مقنع للفكاهة والضحك يرجع إلى حد ما على الأقل ، إلى شدة تنوع وتعقد المواقف التي تثير

الضحك بحيث يصعب رده إلى عدد محدود من الأسباب أو المواقف أو العوامل»^(٥).
•• إذا صح هذا الكلام ، فما ثمة فكاهة كفكاهة الجاحظ يمكن أن ينطبق عليها •• وما أكثر الأسباب والمواقف والعوامل المؤدية إلى الضحك عند الجاحظ ، في مختلف مؤلفاته وأعماله ، سواء منها العلمية الخالصة ككتاب « الحيوان » أو الضاحكة مثل « البغلاء » أو الكتب الأخرى مثل « البيان والتبيين » •

مجريان يناقشان الضحك

لقد لاحظ الكاتب المجري « جورج مايكيش » وهو يناقش آرثر كوستلر في مقالة عنوانها « أهمية الترويح عن النفس بالفكاهة والدعابة » أن الأمر « الذي يستوقف النظر في أي موقف من المواقف هو الشيء الغريب المتناقض الذي يثير الضحك ، في حين يراه الآخرون مدعاة إلى الأسى »^(٦) •
ويتابع مايكيش قائلاً :

« منذ نحو ١٥ عاماً كنت أكتب أول رواية لي ، فسألني آرثر كوستلر عن موضوعها فقلت له : إنها تدور حول رجل أكل له ولع شديد بالطعام كولع غيره بالشراب ، فhez رأسه معقّباً : موضوع جيد يناسب كافكا أكثر مما يناسبك ، ولكنه جيد على كل حال » •
ويستطرد مايكيش فيقول :

« من هذا التعقيب يتضح أن كوستلر لم ير في الموضوع سوى الجانب الذي يدعو إلى الأسى ، في حين أنني رأيت فيه الجانب الذي يبعث على الضحك »^(٧) •

•• ولعل هذا ما دعا الباحث الدكتور أحمد أبو زيد إلى التوقف عند هذه الناحية الهامة في الفكاهة ، ذاك أن الفكاهة لا تتوقف عند الموقف وحده ، وإنما تتوقف أيضاً عند نظرة الانسان إلى الأمور وفهمه وتقويمه لها^(٨) •

وهذا عنوان عريض ، يمكن أن يوضع فوق كثير من فكاهات الجاحظ ونوادره ، مما كتبه أو عاشه •• أو قاله شفهيّاً فآثر عنه ، وردده عدد من كتب التراث •

بيرغسون وفلسفته في الضحك

على أننا لا نقدر ونحن نتحدث عن الفكاهة ، إلا أن نتوقف عند رأي واحد من الفلاسفة المعاصرين لنرى فكاهات الجاحظ، في ضوء تفسيره للضحك وفهمه لهذه الظاهرة الانسانية ، وإن يكن مثله كمثّل الكثيرين من المفكرين والفلاسفة، الذين حاولوا رد هذه الظاهرة أو تلك لسبب واحد ، على نحو رئيسي، فنجحوا في جانب من تأويلهم ، وجافتهم الحقيقة في جوانب أخرى .

لقد شرح هنري بيرغسون Henri Bergson نظريته في الفكاهة في كتابه « الضحك Le Rire » الذي نقله إلى العربية الدكتور سامي الدروبي .

إن بيرغسون يرد الضحك ، على نحو جوهرى إلى الجمود أو الآلية التي تتعارض مع تلقائية الحياة وبساطتها وعفويتها .

ما الذي يجري عندما يدعو إنسان آخر للمبيت عنده في منزله ؟ أليس الطبيعي أن يقدم له العشاء بصدق ؟ أليس هذا هو الموقف العفوي التلقائي الذي يمكن أن يتخذه أي إنسان عادي ؟!

غير أن الجاحظ اختار في « البغلاء » نموذجاً إنسانياً جمّد البخل روحه وقلبه ، وجعل سلوكه يدخل في آلية لا تتعارض مع تلقائية الحياة وبساطتها فحسب ، بل إنها لتناقضها تناقضاً تاماً .

نموذج .. من عند الجاحظ

يقول الجاحظ (٩) :

صحبني « محفوظ النقاش » من مسجد الجامع ليلاً ، فلما صرت قرب منزله - وكان منزله أقرب إلى مسجد الجامع من منزلي - سألتني أن أبيت عنده وقال : أين تذهب في هذا المطر والبرد ، ومنزلي منزلك ، وأنت في ظلمة ، وليس معك نار ، وعندي لباً^(١٠) لم ير الناس مثله ، وتمرّ ناهيك به جودة ، لا تصلح إلا له . فملت معه ، فأبطأ ساعة ثم جاءني بجام لباً وطبق تمر . فلما مدت يدي قال : « يا أبا عثمان ، إنه لباً وغِلْظُهُ^(١١) ، وهو والليل وركوده ، ثم

ليلة مطر ورطوبة • وأنت رجل قد طعنت في السن ، ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً ، وما زال الغليل (١٢) يسرع إليك ، وأنت في الأصل لست صاحب عشاء ، فان أكلت اللبأ ولم تبالغ كنت لا أكلاً ولا تاركاً ، وحرشت (١٣) طباعك ، ثم قطعت أشهى ما كان إليك • وإن بالغت بتنا في ليلة سوء من الاهتمام بأمرك ، ولم نعد لك نبيداً ولا عسلاً • وإنما قلت هذا الكلام لئلا تقول غداً : كان وكان • والله قد وقعت بين نابي أسد ، لأنني لو لم أجهك به ، وقد ذكرته لك ، قلت : بخل به ، وبداله فيه ، وإن جئت به ، ولم أحذرک منه ، ولم أذكرک كل ما عليك فيه ، قلت : لم يشفق عليّ ولم ينصح • فقد برئت إليك من الأمرين جميعاً • فان شئت فأكلة وموتة • وإن شئت فبعض الاحتمال ونوم على سلامة •

•• فما ضحكك قط كضحكي تلك اللية • وقد أكلته جميعاً فما هضمه إلا الضحك والنشاط والسرور في ما أظن • ولو كان معي من يفهم طيب ما تكلم به ، لأتني عليّ الضحك ، أو لقضي عليّ ، ولكن ضحك من كان وحده ، لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب •

لقد كان محفوظ النقاش في حديثه ودعوته وتصرفاته جميعاً تلك الليلة مع أبي عثمان ، شخصية سيطرت عليها الشكلية والنمطية إلى أبعد الحدود • وحينما تسيطر الشكلية والنمطية على جوهر الأشياء ينشأ الضحك •• كما يرى بيرغسون •

ونضحك من عيوب غيرنا

ويلاحظ الفيلسوف الفرنسي أننا نضحك أيضاً من عيوب غيرنا • وفي الآن ذاته « يجب أن نحفظ باستقلالنا تجاه الآخر ، إذ أن أي اتحاد به أو إسقاط عليه يفسد علينا إحساسنا بالتفوق والتميز ، وينتهي بالتالي إلى تنغيصنا والقضاء على متعتنا » (١٤) •

حكي عن الجاحظ أنه قال : (١٥) ألّفت كتاباً في نوادر المعلمين ، وما هم عليه من التغفل ، ثم رجعت عن ذلك ، وعزمت على تقطيع ذلك الكتاب ، فدخلت يوماً مدينة فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة ، فسلمت عليه فرد عليّ أحسن رد ، ورحب بي ، فجلست عنده وباحثته في القرآن فاذا هو ماهر فيه ، ثم فاتحته

في الفقه والنحو وعلم المنقول وأشعار العرب ، فإذا هو كامل الآداب ، فقلت : هذا والله مما يقوي عزمي على تقطيع الكتاب . قال : فكنت أختلف إليه وأزوره ، فجئت يوماً لزيارته ، فإذا بالكتاب مغلق ولم أجده ، فسألت عنه فقيل : مات له ميت فحزن عليه وجلس في بيته للعزاء . فذهبت إلى بيته وطرقت الباب فخرجت إليّ جارية وقالت : ما تريد ؟ قلت : سيدك ، فدخلت وخرجت وقالت : باسم الله . فدخلت إليه ، وإذابه جالس . فقلت : عظم الله أجرك ، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة . كل نفس ذائقة الموت ، فعليك بالصبر . ثم قلت له : هذا الذي توفي . . . ولدك ؟ قال : لا . قلت : فوالدك ؟ قال : لا . قلت : فأخوك ؟ قال : لا . قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . قلت : فما هو منك ؟ قال : حبيبتي ، فقلت في نفسي : هذه أولى المناחס . وقلت : سبحان الله ، النساء كثير ، وستجد غيرها . فقال : أتظن أنني رأيتهما ؟ قلت : وهذه منحسة ثانية . ثم قلت : وكيف عشقت من لم تر ؟! فقال : اعلم أنني كنت جالسا في هذا المكان ، وأنا أنظر من الطاق ، إذ رأيت رجلاً عليه برد وهو يقول :

يا أم عمرو جزاك الله مغفرة ردي علي فؤادي مثلما كانا
ألست أملح من يمشي على قدم يا أملح الناس كل الناس إنساناً (١٦)

فقلت في نفسي : لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مرّ ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

لقد ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت ، فحزنت وأغلقت المكتب وجلست في الدار . فقلت : يا هذا إنني ألقت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبك عازمت على تقطيعه والآن قد قويت عزمي على إبقائه ، وأول ما أبدأ بك ، إن شاء الله تعالى .

أساس الفكاهة . .

إن بيرغسون يرى أنه لما كانت الآلية المعارضة للحياة هي أساس الحركة المثيرة للضحك ، فهي أيضاً أساس الفكاهة الشخصية واللغوية (١٧) . ومن هنا ،

ذلك المورد الذي لا ينضب للسخرية والهزاء والتهكم عند الجاحظ ، من ذلك مثلاً هذه النادرة التي أوردها في « البيان والتبيين » (١٨) :

« بينما معاوية بن مروان واقف بدمشق ينتظر عبد الملك على باب طحان ، وحمار له يدور بالرحى ، في عنقه جلجل ، إذ قال للطحان : لم جعلت في عنق هذا الحمار هذا الجلجل ؟ قال : ربما أدركتني سامة أو نعسة ، فإذا لم أسمع صوت الجلجل علمت أنه قد قام - أي : وقف عن الدوران - فصحت به . قال معاوية : أفرأيت إن قام ثم مال برأسه هكذا هكذا وجعل يحرك رأسه يمنة ويسرة ؟ وما يدريك أنه قائم (أي واقف) ؟ قال الطحان : ومن لي بحمار بعقل مثل عقل الأمير ؟! » .

الضحك ٠٠ في « البخلاء »

وينتبه بيرغسون إلى أن هذا التعارض - المثير للضحك في أغلب الأوقات - مع القواعد والأعراف الاجتماعية ، لا يعني بالضرورة الرذائل الأخلاقية . طبعي ان البخل هو من الرذائل لكنها الرذائل الانسانية .. لا ٠٠ الأخلاقية . فإذا نجم عن ذلك رذيلة أخلاقية فهذا شأن آخر . وقد أورد الجاحظ في « البخلاء » مثالين عن هذه المسألة فهو يقول :

« زعموا أنهم ربما ترافقوا وتزاملوا (١٩) ، فتناهدوا (٢٠) وتلازقوا (٢١) في شراء اللحم ، فإذا اشتروا اللحم قسموه قبل الطبخ ، وأخذ كل إنسان منهم نصيبه فشكه بخرصة أو بخيط ، ثم أرسله في خلّ القدر والتوابل . فإذا طبخوه تناول كل إنسان خيطه وقد علمه بعلامة ، ثم اقتسموا المرق . ثم لا يزال أحدهم يسأل من الخيط القطعة بعد القطعة حتى يبقى الحبل لا شيء فيه ، ثم يجمعون خيوطهم ، فإن أعادوا الملازمة ، أعادوا تلك الخيوط لأنها تشربت الدسم فقد رويت وليس تناهدهم عن طريق الرغبة في المشاركة ، ولكن ٠٠ لأن بضعة كل واحد منهم لا تبلغ مقدار الذي يحتمل أن يطبخ وحده ، ولأن المؤونة تخفّ أيضاً ، والحطب والخل والثوم والتوابل ، ولأن القدر الواحدة أمكن من أن يقدر كل واحد منهم على قدر » (٢٢) .

ومن هذا القبيل قصة الخراسانية التي يرويها أبو عثمان فقد ترافقوا في منزل وصبروا عن الارتفاق^(٢٣) بالمصباح ما أمكن الصبر ، ثم إنهم تناهدوا وتخرجوا^(٢٤) ، وأبى واحد منهم أن يعينهم وأن يدخل في الغرم^(٢٥) معهم . فكانوا إذا جاء المصباح شدوا عينيه بمنديل ، ولا يزال ولا يزالون كذلك إلى أن يناموا ويطفئوا المصباح ، فإذا أطفؤوه أطلقوا عينيه^(٢٦) .

... وكما يبدو فإن في هاتين النادرتين اللتين رواهما الجاحظ في «البخلاء» إغراقاً وإغراباً في البعد عن الأعراف الاجتماعية والروح العامة السائدة في المجتمع ، يكاد يفوق الخيال . . لكنه . . على كل حال ، ليس من الرذائل الأخلاقية ، اللهم . . إذا لم نعدّ البخل في ذاته رذيلة أخلاقية .

أي خيال ، هذا الذي يستطيع أن يتفتق ، عن تعليم كل خيط لحم بعلامة ، وعن تشبعه بالدسم ، من المرة الأولى ، كي يحتفظ الطعام بكامل دسمه في المرات التالية فلا يذهب شيء منه إلى الخيط؟!

.. ومثل هذا شدّ عيني من لم يدخل في غرم المصباح وكلفة زيتته .. !

الفكاهة .. واللغة ..

لقد حدد بيرغسون نمطين من الفكاهة التي تكون فيها اللغة مجرد أداة توصيل .

أ - فكاهة الأحداث والمواقف والأفعال عن طريق الرواية .

ب - الفكاهة اللغوية الصرف التي تقع بسببها في حبال اللغة^(٢٧) .

وينطبق النمط الأول على حكاية «معاذة العنبرية» . يقول الجاحظ^(٢٨) :

« ثم اندفع شيخ منهم - أي : من أهل مرو - فقال : لم أر في وضع الأمور مواضعها ، وفي توفيتها غاية حقوقها ، كمعاذة العنبرية . قالوا : وما شأن معاذة هذه ؟ قال :

أهدى إليها العام ابن عم لها أضحية ، فرأيتها كئيبة حزينة مفكرة مطرقة ، فقلت لها : ما لك يا معاذة ؟ قالت : أنا امرأة أرملة ، وليس لي قيم ، ولا عهد لي

بتدبير لحم الأضاحي ، وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه . وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ، ولست أعرف وضع جميع أجزائها في أماكنها . وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا في غيرها شيئاً لا منفعة فيه . ولكن المرء يعجز لا محالة ولست أخاف من تضييع القليل ، إلا أنه يجز تضييع الكثير . أما القرن فالوجه فيه معروف، وهو أن يجعل منه كالخطاف ، ويسمر في جذع من أجذاع السقف ، فيعلق عليه الزبل^(٢٩) والكيران^(٣٠) ، وكل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنات وردان^(٣١) والحيات وغير ذلك . وأما المصران فإنه لأوتار المندفة ، وبنا إلى ذلك أعظم الحاجة . وأما قحف الرأس^(٣٢) واللحيان^(٣٣) وسائر العظام فسبيله أن يكسر بعد أن يعرق^(٣٤) ثم يطبخ ، فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللأدام وللعصيدة ولغير ذلك . ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها ، فلم ير الناس وقوداً قط أصفى ولا أحسن لها منه . وإذا كانت كذلك فهي أسرع في القدر لقلتها ما يخالطها من الدخان . وأما الالهاب ، فالجلد نفسه جراب ، وللصوف وجوه لا تعد . وأما الفرث^(٣٥) والبعر فحطب إذا جفف عجيب . .

ثم قالت : بقي علينا الانتفاع بالدم ، وقد علمت أن الله عز وجل لم يحرم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه ، وأن له مواضع يجوز فيها ولا يمنع منها ، وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به ، صار كية في قلبي وقذى في عيني ، وهما لا يزالان يعودني .

قال : فلم ألبث أن رأيته قد تطلعت^(٣٦) وتبسّمت ، فقلت : ينبغي أن يكون قد انفتح لك باب الرأي في الدم . قالت : أجل ذكرت أن عندي قدوراً شامية جديداً ، وقد زعموا أنه لا شيء أدبغ ولا أزيد في قوتها من التلطيخ بالدم الحار الدسم ، وقد استرحت الآن ، إذ وقع كل شيء موقعه .

قال : ثم لقيتها بعد ستة أشهر ، فقلت لها : كيف كان قديد تلك ؟ قالت : بأبي أنت . لم يجيء وقت القديد بعد . لنا في الشحم والالية والجنوب والعظم المعرق وفي غير ذلك معاش ، ولكل شيء إبان .

فقبض صاحب الحمار والماء العذب قبضة من حصا ، ثم ضرب بها الأرض ، ثم قال : لا تعلم أنك من المسرفين حتى تسمع بأخبار الصالحين . .

اللغة ليست مجرد أداة

•• لقد استطاعت اللغة أن توصل ما أراد أبو عثمان إخبارنا به من حكاية معاذة العنبرية ، غير أن اللغة لم تكن هنا مجرد أداة توصيل على حد تعبير بيرغسون ، ذاك أن كل مفردة من مفرداتها ، سوى أن لها دوراً مرسوماً في إيقاع الفكاهة ، وفي تكوين اللحن العام ، تؤدي وظيفتها في تشكيل الفكاهة ، عن طريق الرواية ، والتصورات الضاحكة التي تصاحب ظلال الألفاظ وأطيافها الواسعة بلغة الكيميائيين •

قاضي البصرة

••• أما النمط الثاني من الفكاهة التي تبدو اللغة فيها عنصراً أساسياً ، فانما تصوره حكاية (قاضي البصرة والذباب) وإنما تتراءى هذه الحكاية ، في فنيته وحبكتها ، والتركيز فيها على دينامية الكلمات والعبارات، وما خالطها من تلاعب بالألفاظ ، وفنون البلاغة ، من بديع ومعانٍ وبيان، قصة قصيرة أولى كتبها الجاحظ في ذلك الزمن المبكر ، مثلما فعل بديع الزمان الهمداني الذي ولد بعد وفاة الجاحظ. بثلاث سنوات : « عام ٣٥٨ هـ - ٩٦٩ م » في بعض مقاماته ، ولا سيما « المقامة المضيرية » •

قال الجاحظ : (ثم رجع بنا القول) إلى الحاح الذبّان • كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار ، لم ير الناس حاكماً قط زميئاً ولا ركيناً ولا وقوراً حليماً ضبط من نفسه وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك • كان يصلي الغداة في منزله وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكئ فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ولا يحل حبوته ، ولا يحل رجلاً على رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيقه حتى كأنه بناء مبني ، أو صخرة منصوبة • فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه • فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر • ثم يرجع إلى مجلسه • فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى محله • بل كثيراً ما يكون ذلك ، إذا بقي عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق ، ثم يصلي

العشاء وينصرف . فالحق يقال : لم يقيم في طوال تلك المدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء ولا احتاج إليه ، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب . كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها ، وفي صيفها وفي شتائها . وكان مع ذلك لا يحرك يده ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم . فبينما هو كذلك ذات يوم ، وأصحابه حواليه ، وفي السماطين^(٣٨) بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذباب ، فأطال المكث . ثم تحول إلى مؤق عينه فرام الصبر في سقوطه على المؤق وعلى عضه ونفاذ خرطومه ، كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبته أو يغضّ وجهه أو يذب باصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب ، وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم ينهض . فدعاه ذلك إلى أن يوالي بين الاطباق والفتح ، فتنحى ريثما سكن جفنه - المقصود بالتنحي هو الذباب - ثم عاد إلى مؤقه بأشد من مرته الأولى ، فغمس خرطومه في مكان كان قد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتمالاه وعجزه عن الصبر عليه في الثانية أقل ، فحرك أجفانه وزاد في شدة الحركة وألح في فتح العين ، وفي تتابع الفتح والاطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته . ثم عاد إلى موضعه ، فلما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بداً من أن يذب عن عينيه بيده ، ففعل وعيون القوم إليه ترمقه ، وكأنهم لا يريدونه . فتنحى عنه بقدر ما ردّ يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذبّ عن وجهه بطرف كمّه ، ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك . وعلم أن فعله كله بعين من حضره من أمنائه وجلسائه . فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألح من الخنفساء ، وأزهى من الغراب^(٣٩) .

كلام في كلام

• • ويتجلى سلطان اللغة في الفكاهة عند أبي عثمان ، على نحو خاص ، في تلك النادرة التي رواها في « البخلاء » فهي قائمة أصلاً على الكلام ، حتى إن عنوانها يمكن أن يكون « سرور الكلام » أو « كلام في كلام » . وسوى هذه اللعبة اللفظية فثمة فيها ، معرفة عميقة لدى الجاحظ . بخفايا السلوك ونوازع • • وما يمكن أن ينطوي عليه من كف وإقدام .

يقول الماحظ :

« ومثل هذا الحديث ما حدثني به محمد بن يسير^(٤٠) ، عن والٍ كان بفارس إما أن يكون خالداً خومهرويه أو غيره قال :

بينما هو يوماً في مجلس ، وهو مشغول بحسابه وأمره ، وقد احتجب بجهده ، إذ نجم شاعر بين يديه ، فأنشده شعراً مدحه فيه وقرّظه ومجّده . فلما فرغ قال : قد أحسنت . ثم أقبل على كاتبه فقال : اعطه عشرة آلاف درهم . ففرح الشاعر فرحاً قد يستطار له . فلما رأى حاله قال : وإني لأرى هذا القول ، قد وقع منك هذا الوقوع . اجعلها عشرين ألف درهم ، فكاد الشاعر يخرج من جلده . فلما رأى فرحه قد أضعف قال : وإن فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول . اعطه يا فلان أربعين ألفاً ، فكاد الفرّح يقتله .

فلما رجعت نفسه إليه قال له : أنت ، جعلت فداك ، رجل كريم وأنا أعلم أنك كلما رأيتني قد ازددت فرحاً زدتنني في الجائزة ، وقبول هذا منك لا يكون إلا من قلة الشكر ، ثم دعا له وخرج .

قال : فأقبل عليه كاتبه فقال : سبحان الله ! هذا كان يرضى منك بأربعين درهماً تأمر له بأربعين ألف درهم؟! قال : ويلك ، وتريد أن تعطيه شيئاً؟ قال : أو من إنفاذ أمرك بدّ؟ قال : يا أحمق ، إنما هذا رجل سرّنا بكلام وسرّناه بكلام . هو حين زعم أنني أحسن من القمر ، وأشد من الأسد ، وأن لساني أقطع من السيف ، وأن أمري أنفذ من السنان ، جعل في يدي هذا شيئاً أرجع به إلى بيتي ؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب ! ولكنه قد سرّنا حين كذب لنا ، فنحن أيضاً نسرّه بالقول ، ونأمر له بالجوائز . وإن كان كذباً فيكون كذب بكذب وقول بقول ، فأما أن يكون كذب بصدق ، وقول بفعل ، فهذا هو الخسران المبين الذي سمعت به^(٤١) .

حالتان لغويتان . . أم إنسانيتان ؟

إننا هنا إزاء حالتين لغويتين ، أقام أبو عثمان بينهما توازناً واتساقاً مدهشين : فهما كذابان قوّالان . غير أن السؤال هو التالي : أكان كذب

الثاني نتيجة ومحصلة لكذب الأول ؟ أم إن الثاني القادر الشري ، هو في الأصل كذاب في ذاته ، والأول الشاعر الضعيف ، ليس كاذباً ولا صادقاً ، وإنما هو شاعر محترف صنعتته المبالغة . . لكسب عيشه ، على طريقة الشعراء المرتزقة في ذلك الزمن !؟

.. ان الضحك هنا ، يأتي بالفعل من الفكاهة اللفظية ، ولكن هذا هو الظاهر ، أو الشكل . أما المضمون فهو هذا الضرب من البخل الذي يحط من قيمة صاحبه ويجعله كذاباً ، وهو القوي ، يتوازى ويتساوى ، مع إنسان ضعيف فقير هو الشاعر .

البيان والتبيين

على أن ثمة ضرباً من الفكاهة اللفظية ، يكاد يكون مقتصرأ على اللغة العربية ، لأن أيأ من حالات الاعراب ، في اللغات الأخرى ، لا تشبه الاعراب فيها . وقد كان انتباه الجاحظ إلى ذلك ، في وقت مبكر - بين أواخر القرن الهجري الثاني ومطلع القرن الثالث - أمراً جديراً بالوقوف عنده . بلى ، إن الاعراب يوضح المستغلق من المعاني ويحدده ، إلا أن تعديلاً طفيفاً في حركة الاعراب ، يؤدي إلى تغيير المعنى ، ويعبر عن حالة جديدة . قال الجاحظ (٤٢) :

« من اللحنين الأشراف ابن ضحيان الأزدي » . وكان يقرأ « قل يا أيها الكافرين » (٤٣) . فقليل له في ذلك ، فقال : قد عرفت القراءة في ذلك ، ولكني لا أجل أمر الكفرة » (٤٤) .

هذا اللون من الفكاهة الذي تشبهه الحركة الضاحكة فيه إيماء الضوء Flash نلمحه كثيراً في كتاب الجاحظ « البيان والتبيين » وتقترب الفكاهة هنا كثيراً من عالم النكتة الحديثة ، بل المعاصرة ، حيث تُختزل الألفاظ وتشحن وتكثف إلى أقصى درجة ممكنة ، سواء كانت النكتة تعتمد على الألفاظ والتلاعب بها ، أو تقوم على إظهار التناقض أو تبيان المفارقة . ويظل للأحوال الانسانية ، المزاجية والنفسية والعقلية دور هام في النكتة هنا ، كما هو الحال في جميع كتابات أبي عثمان .

« قيل لو ازع اليشكري : قم فاصعد المنبر وتكلم • فلما رأى جمع الناس قال :
لولا أن امرأتي ، لعنها الله ، حملتني على إتيان الجمعة اليوم ما جمعت ، فأننا
أشهدكم أنها مني طالق ثلاثاً » (٤٥) .

« أل هذا •• دعوناك » ؟!

ووجد مصعب بن حيان نفسه محرجاً في مثل هذا الموقف إذ دعي إلى خطبة
نكاح فحصر - أي : أرتج عليه - فقال: لقتنوا موتاكم قول لا إله إلا الله • فقالت
أم الجارية (العروس) : عجل الله موتك •• أل هذا دعوناك (٤٦) ؟!

••• ودون شعور بالخرج تصرف خالد بن صفوان تصرفاً مشابهاً ، فان
مولى له قال : زوّجني أمتك فلانة • قال : زوجتكها • قال : أفأدخل الحي
حتى يحضروا الخطبة ؟ فقال : أدخلهم • فلما دخلوا ابتدأ خالد فقال :

أما بعد ، فان الله أجل وأعز من أن يذكر في نكاح هذين الكلبين ، وقد زوجنا
هذه الفاعلة ، من هذا ابن الفاعلة (٤٧) •

وأبو عثمان من خلال النكتة الساخرة ، يظهرنا على ضروب من السلوك
البشري • ان هبنقة ، من مشاهير الحمقى أو المجانين العرب ، ولكن الساخر
العظيم ، وضع يده وهو يورد أحد أخباره ، على حالة نفسية حقيقية •

الضحكة •• من قلب المأساة

لقد شرد بعير لهبنقة فقال : من جاء به ، فله بعيران • ف قيل له : أتجعل في
بعير بعيرين ؟ فقال : إنكم لا تعرفون فرحة الوجدان (٤٨) •

ويستل أبو عثمان الضحكة الساخرة من صميم المأساة المروعة ، ليطلعنا
على نموذج عجيب من البشر ، فقد « دعا بعض السلاطين مجنونين ليحركهما
فيضحك مما يجيء منهما ، فلما أسمعاه غضب ودعا بالسيف ، فقال أحدهما
لصاحبه : كنا مجنونين فصرنا ثلاثة » (٤٩) •

ومن المفارقات التي تضحك التكلّي في « البيان والتبيين » هذه الواقعة فقد

« قال هشام بن عبد الملك ذات يوم مجلسائه : أي شيء ألد ؟ قال له الأبرش ابن حسان : أأصابك جرب .. فحككته ؟ قال هشام : أجرب الله جلدك ، ولا فرج الله عنك » (٥٠) .

الفكاهة .. والعدد عند الجاحظ

وثمة فكاهة ، يخيل إلينا ونحن نقرأها أن هذا الركام من السنين لا يفصل بيننا وبين الجاحظ ، فكأنه من هذا الزمان . فقد « قال رجل لرجل : بكم تبيع الشاة ؟ قال : أخذتها بستة ، وهي خير من سبعة ، وقد أعطيت بها ثمانية ، فان كانت من حاجتك بتسعة ، فزن عشرة » (٥١) .

.. وكما يبدو فان للعدد دوراً في الفكاهة عند أبي عثمان . من ذلك أيضاً ما قاله طارق بن المبارك : مرض فتى عندنا . فقال له عمه : أي شيء تشتهي ؟ قال : رأس كبشين .. قال لا يكون . قال : فرأس كبش (٥٢) .

.. ومن هذا القبيل أيضاً ما رواه الجاحظ عن عبد الملك بن هلال الهنائي فقد كان عنده زنبيل ملآن بالحصى ، فكان يسبّح واحدة واحدة ، فإذا ملّ شيئاً طرح ثنتين ثنتين ، ثم ثلاثاً ثلاثاً ، فإذا ملّ قبض قبضة وقال : سبحان الله بعدد هذا . وإذا ملّ شيئاً قبض قبضتين وقال : سبحان الله بعدد هذا . فإذا ضجر أخذ بعروتي الزنبيل وقلبه وقال : الحمد لله بعدد هذا . وإذا بكر لحاجة لحظ الزنبيل وقال : الحمد لله بعدد ما فيه (٥٣) .

ثمة في هذه النادرة شيء سوى العدد . انه هذا المزاج الحاد ، وتلك الارادة الممتازة في امتلاك ناصية النفس . فان الرجل يريد أن يظل رابط الجأش متمسكاً صلباً من الداخل ، وهكذا فانه يفتأ انجباسه الداخلي من خلال الحصى ، فهو هنا يشبه حبات السبّعة في يد بعض الناس من ذوي المزاج الصعب .

.. وهذا نموذج آخر من ذوي المزاج الحاد يضعه عمرو بن بحر تحت أنظارنا ، الا أنه يختلف عن صاحب الحصى ، بأنه انشيان فعال ، أي أنه قادر على نقل انفعاله من الحيز الجوّاني لجعله فعلاً مضارعاً ان لم يكن ماضياً .

نموذج حاد آخر ..

قال الجاحظ :

كان شيخ يأتي ابن المقفع ، فألح عليه يسأله الغداء عنده ، وفي ذلك يقول :
انك تظن أنني أتكلف لك شيئاً ؟! لا والله . اني لا أقدم لك الا ما عندي . فلما
أتاه اذ ليس في منزله الا كسرة يابسة وملح جريش ! ووقف سائل بالباب
فقال له : بورك فيك . فلما لم يذهب قال : والله لو خرجت اليك لأدقن ساقيك .
فقال ابن المقفع للسائل : انك لو عرفت من صدق وعيده ما أعرف من صدق
وعده ، لم تُرادّه كلمة ولم تقف طرفه عين (٥٤) .

الفكاهة في كتاب « الحيوان »

أشك في ان الجاحظ وضع خطة محددة وهو ينوي تأليف كتابه العظيم
(الحيوان) فاذا كان متنه علمياً هو دراسة الحيوان ، الا أن حواشيه الكثيرة من
خلال استطرادات الجاحظ الفزيرة ، جعلت فيه بحوثاً دينية واجتماعية
وأدبية وتاريخية وفلسفية ، لكن لا يفوت الكاتب الكبير وهو ينتقل من غصن
الى غصن في شجرة أخرى أن يورد الحكاية الطريفة والنادرة الضاحكة
والمفارقة العجيبة .

من موقف يبعث على الابتسام الى آخر يدفع الى الضحك . وأي ضحك ؟!
انه الضحك الذي يبلغ أحياناً حد القهقهة ، ولو كان المرء وحيداً وهو
يقرأ ، فكيف اذا كان في جماعة . ومعلوم ان الانسان يضحك بين الآخرين أكثر
مما يفعل وهو منفرد ، كما يرى « بيرغسون » ، كما أن الضحك في
جماعة يتخذ معنى أعمق من الضحك الفردي ، وان يكن للعدوى دور في ذلك .

أسلوب الجاحظ في « الحيوان »

يقول أبو عثمان في مقدمة « الحيوان » متحدثاً عن قارئ هذا الكتاب :
« ومتى خرج من أي القرآن ، صار الى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار الى
خبر . ثم يخرج من الخبر الى شعر ، ومن الشعر الى نوادر ، ومن النوادر

الى حكم عقلية ومقاييس شداد ، ثم لا يترك هذا الباب ، ولعله أن يكون أثقل والملال اليه أسرع حتى يفضي به الى مزح وفكاهة ، والى سخف وخرافة ولست أراه سخفاً . » (٥٥)

كثير من فكاهات الجاحظ ونوادره في هذا الكتاب يتصل بالحيوان ، في ذاته ، أو بالانسان من خلال علاقته بالحيوان . وربما كان الأمر بين حيوان وآخر . ولكن يظل للانسان ذاته دور في هذا المجال .

وفي الامكان تصنيف فكاهات الجاحظ في كتاب « الحيوان » كما يلي :

١ - الهجاء :

لقد كان أبو عثمان يتحدث عن الكلب وكل ما يمكن أن تكون له علاقة به ، حتى انتهى الأمر به الى الشعر ، وقول عوف بن الأحوص :

فاني وقيسا كالمسمن كلبه تخدشه أنيابه واطافره

وأنشد ابن الأعرابي لبعضهم :

وهم سمّنوا كلبا لياكل بعضهم ولو ظفروا بالعزم ما سمن الكلب

وفي الأثر : سمّن كلبك يأكلك . ويتابع أبو عثمان قائلا : وكان رجل من أهل الشام مع الحجاج بن يوسف ، وكان يحضر طعامه ، فكتب إلى أهله يخبرهم بما هو فيه من الحصب ، وأنه قد سمن ، فكتبت إليه امرأته :

أتهدي لي القرطاس والخبز حاجتي وأنت على باب الأمير بطين

إذا غبت لم تذكر صديقا ولم تقم فانت على ما في يديك ضنين

فانت ككلب السوء في جوع أهله فيهزل أهل الكلب وهو سمين (٥٦)

٢ - النهم والجشع :

قد يوحى العنوان للوهلة الأولى بالبطنة والبلادة والخمول ، لكن الجاحظ انتقى انساناً خبيثاً ، يتجلى ذكاؤه في هذا الخبث . وهو في الآن ذاته ظريف خفيف الظل ، وإن يكن تلاعبه غير قادر على تغطية جشعه ، قال الجاحظ :

« قال أبو الحسن : حدثني أعرابي كان ينزل بالبصرة ، قال : قدم أعرابي من البادية فأنزله ، وكان عندي دجاج كثير ، ولي امرأة وابنان وبنتان منها ، فقلت لامرأتي : بادري واشوي لنا دجاجة وقدميها إلينا نتغداها . فلما حضر الغداء جلسنا جميعاً أنا وامرأتي وابنائي وابنتاي والأعرابي . قال : فدفعنا إليه الدجاجة فقلنا له : اقسمها بيننا ، نريد أن نضحك منه . فقال : لا أحسن القسمة ، فان رضيتم بقسمتي قسمتها بينكم ؟ قلنا : فانا نرضى . فأخذ رأس الدجاجة ، فقطعه فناولنيه وقال : الرأس للرأس . وقطع الجناحين وقال : الجناحان للابنين . ثم قطع الساقين فقال : الساقان للابنتين . ثم قطع الزمركى ، وقال : العجز للعجوز ، وقال : الزور للزائر . قال : فأخذ الدجاجة بأسرها وسخر بنا . قال : فلما كان من الغد قلت لامرأتي اشوي لنا خمس دجاجات . فلما حضر الغداء ، قلت : اقسم بيننا ! قال : إني أظن أنكم وجدتم في أنفسكم . قلنا : لا ، لم نجد في أنفسنا ، فاقسم . قال : أقسم شفعاً - أي : قسمة زوجية - أو وتراً - أي قسمة فردية - قلنا : اقسم وتراً . قال : أنت وامراتك ودجاجة ، ثلاثة . ثم رمى إلينا بدجاجة ، ثم قال : وابناك ودجاجة ثلاثة ، ثم رمى إليهما بدجاجة . ثم قال : وابنتاك ودجاجة ثلاثة ، ثم رمى إليهما بدجاجة . ثم قال : أنا ودجاجتان ثلاثة . وأخذ دجاجتين وسخر بنا . قال : فرأنا ونحن ننظر إلى دجاجتيه ، فقال : ماتنظرون ؟ لعلكم كرهتم قسمة الوتر ، لا يجيء إلا هكذا ، فهل لكم في قسمة الشفع ؟ قلنا : نعم ، فضمهن إليه ثم قال : أنت وابناك ودجاجة ، أربعة ، ورمى إلينا بدجاجة . ثم قال : والعجوز وابنتاهما ودجاجة ، أربعة ، ورمى إليهن بدجاجة . ثم قال : أنا وثلاث دجاجات أربعة . وضم إليه الثلاث ورفع يديه إلى السماء وقال : اللهم لك الحمد أنت فهمتنيها » (٥٧) .

٣ - الموقف الحرج :

وهذا كثير عند عمرو بن بحر ، لكن خير مثال عليه النادرة التالية : فقد ذكر أهل بغداد أنه كانت لابنة من بنات محمد بن راشد الخنّاق حية " وافرة ، وأنها

دخلت مع نساء متنقبات إلى بعض الأعراس لتري العرس وجلسة العروس ،
فقطنت لها امرأة ، فصاحت : رجل والله! وأحال الخدم والنساء عليها بالضرب ،
فلم تكن لها حيلة إلا الكشف عن فرجها ، فنزعن عنها وقد كادت تموت (٥٨) .

٤ - المفارقة :

وهي عنده تمتزج بالأسطورة والمبالغة والشعر . لقد كان أبو عثمان
يتحدث عن الخصاء حديث العلم ، ثم انتقل الى السفاد بين أنواع حيوانية
مختلفة ، وما هو ذا يقول :

« وزعم يحيى بن عليم أن الثعلب يسفد الهرة الوحشية فيخرج بينهما
ولد وأنشد قول حسان بن ثابت (رضي الله تعالى عنه) :

أبوك أبوك وأنت ابنة قبش البني وبش الأب
وأماك سوداء ما دونه كان أناملها العتظب (٥٩)
بييت أبوك بها معرسا كما ساور الهرة الثعلب

وأنشد أبو عبيدة قول عبدالرحمن بن الحكم :

ألا أبلغ معاوية بن حرب مغلفة عن الرجل اليماني
اتغضب أن يقال أبوك عفاً وترضى أن يقال أبوك زان
فاشهد أن آلك من قريش كرحم الفيل من ولد الأتان

قال كيسان : ولأي شيء قال : كرحم الفيل من ولد الأتان ؟ إنما كان
ينبغي أن يقول كرحم الفيل من الخنزير . قال أبو عبيدة : أراد هو التبعيد بعينه
وأنت تريد ما هو أقرب . ويستطرد الجاحظ قائلاً : وزعم بعض المفسرين
وأصحاب الأخبار أن أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفأر فعطس الأسد عطسة
فرمى من منخره زوج سنانير ، فلذلك السنور أشبه شيء بالأسد . وسلح
الفيل زوج خنازير ، فلذلك الخنزير أشبه شيء بالفيل ، قال كيسان ،
فينبغي أن يكون ذلك السنور آدم السنانير ، وتلك السنورة حواءها .
وضحك القوم (٦٠) .

٥ - الاغراب :

كان الجاحظ ، على عادته ، ينتقل من عالم الحيوان ، إلى دنيا الانسان ، منقباً عن عاداته ومسالكه وغرائزه وطباعه ، فاذا هو يقع في المبالغة إلى حد الاغراب ، بينما هو يزعم أنه يقرر قاعدة عامة في الحياة والأخلاق والسنن الاجتماعية . فممّا يدعو إلى الفساد « طول وقوع البصر على الانسان » و « طول التداني وكثرة الرؤية هما أصل البلاء » ، كما قيل لابنة الخس : لِمَ زنيت بعبدك ، ولمَ تزني بحرّ ، وما أغراك به ؟ قالت : طول السواد وقرب الوساد . ويتابع أبو عثمان : « ولو أن أقبح الناس وجهاً وأنتنهم ريحاً وأظهرهم فقرّاً وأسقطهم نفساً وأوضعهم حسباً قال لامرأة قد تمكن من كلامها ومكنته من سمعها : والله يا مولاتي وسيدتي ، لقد أسهرت ليلي وأرقت عيني ، وشغلتنني عن مهمّ أمري ، فما أعقل أهلاً ولا مالاً ولا ولداً ، لنقض طباعها ولفسخ عقدها ، ولو كانت أبرع الخلق جلالاً وأكملهم كمالاً وأملحهم ملحاً . فان تهياً ، مع ذلك من هذا المتعشق أن تدمع عينه ، احتاجت هذه المرأة أن يكون معها ورع أم الدرداء ومعاذة العدوية ورابعة القيسية والشجا الخارجية (٦١) » .

٦ - الغرابة والغفلة :

وهنا يمزج الجاحظ بين الشعر والأثر والنفس العلمي ، وهو يخبرنا بحمق النعامة : « ويقولون : أحق من نعامة . كما يقولون أشرد من نعامة . قالوا ذلك لأنها تدع الحظن على بيضها ساعة الحاجة إلى الطعم ، فان هي في خروجها ذلك ، رأت بيض أخرى قد خرجت للطعم حضنت بيضها ونسيت بيض نفسها ولعل تلك أن تصاد فلا ترجع إلى بيضها في العراء حتى تهلك . قالوا : ولذلك قال ابن هرمة :

فاني وتركي ندى الأكرمين وقدحي بكفيّ زنداً شاحا
كتاركة بيضها بالعراء وملبسة بيض أخرى جناحا (٦٢)

٧ - الجنس :

وللجنس وشؤونه دور كبير في مختلف أجزاء كتاب الحيوان . على أنه لا يعرضه مجانياً هكذا ، كما هو الحال في بعض المؤلفات القديمة ، إذ ينحط الجنس إلى أدنى المراتب . فالجاحظ يريد أن يبحث هذه المسألة بحث العالم المستقصي المدقق، المنقب عن الحقيقة قبل أي شيء آخر ، يستوي لديه هنا الإنسان والحيوان . . . إلا أنه في هذه الأثناء لا يتوانى حتى عن توظيف الفكاهة . فان لها دورين ، الأول هو شرح جانب من الموضوع الذي يدرسه أبو عثمان . والثاني هو الترويح عن نفس القارئ دفعاً للملل ، مما كان الجاحظ قد أوضحه في مقدمة الكتاب .

لقد كان يتحدث عن المرأة والجنس ، فامرأة مات زوجها فتحرّك طباعها خطر . وأخرى مغيّبة في مثل هذا المعنى . وثالثة طال لبثها مع زوجها ، فذهب الاستطراف وماتت الشهوة . ثم انتقل إلى الكلام على طريقة لصرف الشهوة ، في منحى آخر ، في ما نسميه نحن اليوم : التصعيد ، حتى لا تسمع المرأة من أحاديث الغزل والباه قليلاً ولا كثيراً . .

وبينا الجاحظ مستغرق في هذا الموضوع ، إذ به يقفز كمادته ، نحو نادرة لها صلة وثيقة بالموقف . قال أبو عثمان :

« ركبت عجوز سندية ظهر بعير ، فلما أقبل بها البعير وأدبر وطمر (٦٣) فمخضها مرة مخض السقاء ، وجعلها مرة كأنها ترهز ، فقالت بلسانها وهي سندية أعجمية : أخزى الله هذا (الزَمَل) - تعني : الجمل - فانه يذكر بالشر!

. . ويتابع عمرو بن بحر : « وحدثنا ربي الأنصاري أن عجوزاً من الأعراب ، جلست في طريق مكة إلى فتیان يشربون نبيذاً فسقوها قدحاً ، فطابت نفسها وتبسّمت . ثم سقوها قدحاً آخر فاحمرّ وجهها وضحكت . فسقوها قدحاً ثالثاً ، فقالت : خبروني عن نسائك بالعراق ، أيشرّبن من هذا الشراب؟ فقالوا نعم . فقالت : زنين ورب الكعبة (٦٤) .

كلمة أخيرة ..

وماذا بعد ؟

في ما أعلم ، فما من أديب أو باحث في التراث العربي كله ، كان له ظرف الجاحظ وخفة ظله . وما من أحد كأبي عثمان كانت الفكاهة ، أمراً جوهرياً في حياته ، حتى ليُظن أن البحث عنها وروايتها كانا شغله الشاغل .

« قال المرزباني ، وحدث أبو الحسن الأنصاري ، حدثني الجاحظ قال : كان رجل من أهل السواد تشيع وكان ظريفاً . فقال ابن عم له : بلغني أنك تبغض علياً عليه السلام ، والله لئن فعلت لتردن عليه الحوض يوم القيامة ولا يسقيك . قال : والحوض في يده يوم القيامة؟! قال : نعم . قال : وما لهذا الرجل الفاضل يقتل الناس في الدنيا بالسيف وفي الآخرة بالعطش؟! فقيل له : أتقول هذا مع تشيعك ودينك؟ قال : والله لا تركت النادرة ، ولو قتلتني في الدنيا ، وأدخلتني النار في الآخرة» (٦٥) .

.. ويلاحظ الدكتور عبد الكريم اليافي في تعليقه على « رسالة التربيع والتدوير » للجاحظ وكان أبو عثمان قد كتبها في هجاء رجل مفرط في الادعاء شكلاً ومضموناً يدعى أحمد عبد الوهاب ، أننا على الرغم من مرور أكثر من أحد عشر قرناً على كتابة هذه الرسالة ، فاننا ما نزال نتندر وننبسط عند تلاوتها ، ونعجب لتفنن الجاحظ في ضحكه المتهمك (٦٦) .

وربما كان هذا وراء هروب (أبي هفان) (٦٧) من الرد على الجاحظ وقد هرض به وندد .

قيل لأبي هفان : لم لا تهجو الجاحظ ، وقد ندّد بك وأخذ بمُخَنَّقك؟ فقال : أمثلي يخدع عن عقله؟! والله ، لو وضع رسالة في أرنبه أنفي لما أمست إلا بالصين شهرة . ولو قلت فيه ألف بيت لما طنّ منها بيت في ألف سنة (٦٨) .

لقد كان (أبو العيناء) (٦٩) من الذين عاصروا الجاحظ ، وروى أخباراً كثيرة عنه وكان معجباً به ، وقد قيل له يوماً : ليت شعري ، أي شيء كان الجاحظ يحسن ؟ فقال : ليت شعري ، أي شيء كان الجاحظ لا يحسن؟! (٧٠) .

□ الهوامش :

- ١ - ابن الزيات [١٧٣ - ٢٢٢ هـ = ٧٨٩ - ٨٤٧ م]
محمد بن عبد الملك بن إبان بن حمزة أبو جعفر ، عالم
باللغة والأدب ، من بلغاء الكتّاب والشعراء ، وله
ديوان شعر . وزير المعتصم والوائق العباسيين .
نشا في بيت تجارة قرب بغداد ونيغ ، فتقدم حتى بلغ
مرتبة الوزارة . وعوّل عليه المعتصم في مهام دولته
وكذلك ابنه الواثق . ولما مرض الواثق عمل ابن
الزيات على تولية ابنه وحرمان المتوكل فلم يفلح .
وولي المتوكل فنكبه وعذبه إلى أن مات ببغداد .
- الأعلام : للزركلي -
- ٢ - التنوير : صندوق خشبي يضاوي الشكل يشبه البرميل،
وجدرانه قد كسيت بمسامير حادة متقاربة ، ويدخلون
المحكوم عليه بالأعدام على هذه الصورة ، ثم يأخذون
في حرجة الصندوق جيئة وذهابا حتى يقضي المحكوم
عليه نجه وسط عذاب يفوق كل وصف .
- رحلة مع الظرفاء : أحمد عبدالمجيد -
دار المعارف - القاهرة : ١٩٧٦
- ٣ - القيس الجاحظ العبارة من سورة « التوبة » الآية ٤٠
وفيها قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ
أخرجهم الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الفار ،
إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فانزل الله
سكينته عليه ، وأيّد به جنود لم تروها ، وجعل كلمة
الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله
عزيز حكيم » .
- ٤ - رحلة مع الظرفاء - ص ٢٩ .
- ٥ - عالم الفكر - المجلد ١٣ - العدد ٣ - الكويت -
دكتور أحمد أبو زيد : الفكاهة والضحك - ص ٦ .
- ٦ - المصدر نفسه - ص ٧ .
- ٧ - المصدر السابق - ص ٧ .
- ٨ - المصدر نفسه - ص ٧ .
- ٩ - البغلاء . دار كرم - دمشق - ص ١٥١ .
- ١٠ - لبأ : أول الحليب عند الولادة .
- ١١ - غلظه : ثقله على المعدة .
- ١٢ - الغليل : شدة العطش .
- ١٣ - حرشت طباعك : هيجت شهوة الأكل .
- ١٤ - عالم الفكر - المجلد ١٣ - العدد ٣ - ص ٢٠٥ .
- ١٥ - المستطرف في كل فن مستظرف - شهاب الدين الأبيشي -
دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٨٧ - المجلد الثاني -
ص ٣٢١ .
- ١٦ - أورد الأبيشي هذين البيتين على نحو آخر ، والصواب
ما أثبتناه .
- ١٧ - عالم الفكر - ص ٢٠٥ .
- ١٨ - البيان والتبيين - ج ٢ - ص ٢٠٥ .
- ١٩ - المقصود : أهل مرو .
- ٢٠ - ترافقوا .
- ٢١ - لزم كل منهم الآخر .
- ٢٢ - البغلاء - ص ٢٨ .
- ٢٣ - الارتفاق : الانتفاع .
- ٢٤ - اتفقوا على الاشتراك في النفقة .
- ٢٥ - الغرم : النفقة .
- ٢٦ - البغلاء - ص ٢٣ .
- ٢٧ - عالم الفكر - المجلد ١٣ - العدد ٣ - مفاهيم الفكاهة
الفرنسية : محمد علي الكردي - ص ٢٠٥ .
- ٢٨ - البغلاء - ص ٤٠-٤١-٤٢ .
- ٢٩ - الزبل واحدها زبيل : السل .
- ٣٠ - الكيران ج. كور : المجرة .
- ٣١ - بنات وردان : الصراصر .
- ٣٢ - العظم الذي فوق الدماغ .
- ٣٣ - اللحيان : عظاما العنك .
- ٣٤ - يعرق : يعرض من اللحم .
- ٣٥ - الفرث : ما يوجد في كرش الشاة .
- ٣٦ - تطلّقت : انبسطت أسارير وجهها .

٣٧- احتبى : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها عوضاً
عن الاستناد الى جدار .

٣٨- السماط : الصف ، النسق .

٣٩- الحيوان : طبعة مطبعة التقدم - القاهرة ١٩٠٧ -
الجزء ٣ - ص ١٠٦-١٠٧ .

٤٠- أبو جعفر محمد بن يسير الرياشي - شاعر عاصر
الجاحظ في البصرة ، والجاحظ يكثر من ذكره
ورواية شعره .

٤١- البخلاء - ص ٣٢-٣٣ .

٤٢- البيان والتبيين - ج ٢ - ص ٣٣٢ .

٤٣- صوابها : يا أيها الكافرون .

٤٤- أي انه لا يريد أن (يرفع) لفظ الكافرين لثلا (يرفع)
من شأنهم .

٤٥- البيان والتبيين - ج ٢ - ص ١٩٧ .

٤٦- المصدر نفسه - ج ٢ - ص ١٩٥ .

٤٧- المصدر نفسه - ج ٢ - ص ١٩٥ .

٤٨- البيان والتبيين - ج ٢ - ص ١٩٠ .

٤٩- المصدر السابق - ج ٢ - ص ١٨٢ .

٥٠- المصدر السابق - ج ٢ - ص ١٨٨ .

٥١- المصدر السابق - ج ٢ - ص ١٨٩ .

٥٢- المصدر السابق - ج ٢ - ص ١٩٠ .

٥٣- البيان والتبيين - ج ٣ - ص ١٧٣ .

٥٤- البيان والتبيين - ج ٣ - ص ١٦٠ .

٥٥- الحيوان - ج ١ - المقدمة .

٥٦- الحيوان - الجزء ١ - مطبعة السعادة : ١٩٠٧ -
ص ٤٦ .

٥٧- الحيوان - الجزء ٢ - ص ١٣٠-١٣١ .

٥٨- الحيوان - ج ١ - ص ٥٢ .

٥٩- العنظب - الجراد الضخم . وقيل : الأصغر .

٦٠- الحيوان - ج ١ - ص ٦٦-٦٧ .

٦١- المصدر السابق - ج ١ - ص ٧٨ .

٦٢- الحيوان - ج ١ - ص ٩٢ .

٦٣- طمر : أتجه الى الأسفل ، أي هبط .

٦٤- الحيوان - ج ٣ - ص ٩٠ .

٦٥- معجم الأدباء - ياقوت الحموي - ج ١٦ - ص ٨٧ .

٦٦- دراسات فنية في الأدب العربي - د. عبدالكريم اليافي -
دمشق ١٩٧٢ - ص ٥٦٢ .

٦٧- أبو هفان (٠٠٠ - ٢٥٧ هـ = ٠٠٠ - ٨٧١ م) :
عبدالله بن أحمد . راوية عالم بالشعر من أهل البصرة ،
سكن بغداد وأخذ عن الأصمعي ، وكان فتياً متهتكا .
له: أخبار الشعراء . صناعة الشعر . أخبار أبي نواس .

٦٨- دراسات فنية في الأدب العربي - د. عبدالكريم اليافي -
ص ٥٦٨ .

٦٩- أبو العيناء (١٩١ - ٢٨٣ هـ = ٨٠٧ - ٨٩٦ م) :
محمد بن القاسم ، إخباري ، أديب ، شاعر من الظرفاء ،
عاصر الجاحظ وروى عنه .

٧٠- دراسات فنية في الأدب العربي - د. ع. اليافي .

